محاضرات مقياس قضايا النقد الأدبي القديم

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: سنة ثانية ماستر أدب قديم، الفوج:01، السداسي الثالث.

المحاضرة الرابعة: قضية الطبع والصنعة.

جاء في لسان العرب، أن الطبع والطبيعة: الخليقة والسجية، التي جبل عليها الإنسان، وطبعه الله على الأمر فطره عليه، وجاء في الحديث الشريف: يُطبعُ المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب.

أما الصنعة فهي العمل وإتقان الشيء، قال تعالى:﴿**صُنعَ اللهِ الذي أَتْقَنَ كُلَّ شيْءٍ، إنَّهُ خَبيرٌ بمَا تَفْعلُون**﴾{سورة النحل، آية88}.

وعندنا أن الطبع والصنعة مترابطان، لأن الطبع هو ابتداء صنعة الشيء، تقول: طبعتُ اللَّبِنَ طبعاً: وطبع الدرهم والسيف وغيرهما: أي صاغه. والصياغة لا تخلو من الصنعة. ويمكن أن يكون الطبع هنا بمعنى الختم. ومنه قوله تعالى:﴿**طَبَعَ اللهُ على قُلُوبهم**﴾

أما التصنُّعُ فهو التكلُّفُ في الشيء. وقد يكون تكلفا حسنا غرضه التزيين وإظهار السمات الحسنة. وقد يكون ممجوجا، يخرج عن حدِّ المصنوع إلى الغثِّ المستكره.

وحَدُّ المطبوع عند "ابن رشيق القيرواني"، هو الأصل الذي وضع أولا وعليه المدار. وحَدُّ المصنوع عنده هو الذي:"وقع فيه هذا النوع الذي سموه الصنعة" من غير قصد ولا تعمل، لكن بطباع القوم عفوا، فاستحسنوه ومالوا إليه، بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره، حتى قالوا عن زهير إنه صَنَّعَ الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف، يضع القصيدة ثم يكرر نظره فيها، خوفا من التعقُّبِ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أولية.

ويحكى عن "الأصمعي" أنه كان يقول: زهير والنابغة من عبيد الشعر، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه، ويشغلان به حواسهما وخواطرهما. وقد أثر التنقيح والتثقيف في شعر كل من

طفيل الغنوي، الذي قيل إن زُهيرا روى له، وإنه كان يسمى ((مُحَبِّراً)) لحسن شعره. وفي شعر الحطيئة والنمر بن تولب، الذي كان أبو عمرو بن العلاء يسميه ((الكَيِّسْ)) وغيرهم.

وفي خبر لأبي حاتم عن الأصمعي أيضا أنه قال: شعر لبيد كأنه طيلسان طَبَريٌّ أي أنه جيد الصنعة، ولكن ليست له حلاوة.

وبما أن الأدب هو فن مضاف إليه عمل، فهو عمل فني، أي أنه طبع وصناعة أي دربة كافية، وخبرة طويلة ، كفيلة بتنمية الطاقات الكامنة في الطبيعة الفنية، وإبرازها في شكل دقيق جميل. وعلى هذا نستطيع القول إن الطبع والصنعة عاملان متكاملان، لا غنى لأحدهما عن الآخر، لإتمام الصورة الأدبية المطلوبة، وإبرازها في أحسن ما يكون. وقد قالوا: رأسُ الخطابةِ الطَّبْعُ، وعمودها الدُّربةُ، وجناحها روايةُ الكلام، وحليُّها الإعرابُ، وبهاؤُهَا تخيُّرُ الألفاظ.

والمطبوعون على الشعر، من الشعراء المولدين عند الجاحظ هم: بشَّار العُقَيْليّ، والسيِّد الحُميريّ، وأبو العتاهية، وابن أبي عُيَيْنَة.

ومما لا شك فيه أن الصنعة اللفظية، وُجِدَتْ في العصر الجاهلي، ولكنها كانت خفية إلى حد لا يكاد يدركها الشاعر أو يتعمدها، لإحداث موسيقى في أبياته، وعكس هذا ما أُثِرَ عن الشعراء المحدثين، الذين اهتموا بالزخارف اهتماما كبيرا، وأولوها عنايتهم في شعرهم. يقول "ول ديورانت": «إن الشعر الذي كان يُنشد في الصحراء للبدو، في ذلك العصر، أضحى يوجه إلى قصور الخلفاء ورجال حاشيتهم المترفين المتأنقين، ولذا فلابد من العناية به، والاهتمام بهذه الناحية الشكلية». والواضح من كلام "ديورانت" أنه يريد أن يبين أن الخلاف في الصنعة بين الجاهليين، والمحدثين، هو اختلاف بين مجتمعين، أحدهما بدوي والآخر متحضر.

ويؤكد "بشر بن المعتمر" على الصنعة البعيدة عن التكلف، حيث يقول:« فإن أبتُليت بأن تتكلف القولَ، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطِّباعُ في أوَّلِ وهلةٍ، وتَعاصَى عليكَ بعد إجالة الفكرة، فلا تعجلْ، ودَعْهُ بياَضَ يومِكَ وسوادَ ليلِكَ، وعاوِدْ، عند نشاطك وفراغِ بالِكَ،

فإنك لا تعدَم الإجابةَ والموانة، إن كانت هناك طبيعةٌ، أو جرَيتَ في الصناعة على عِرْقٍ...».

وتجدر الإشارة إلى أن مفهوم الصنعة الشعرية، قد ارتبط في أذهان الكثير من الباحثين، بأنه التكلف والتصنع، ومحاولة الشاعر زخرفة كلامه بالمحسنات البديعية. والصنعة الشعرية لا تعني هذا. ولم يقل بها الأقدمون، وإنما هي إلهام يلهم به الشاعر، كما يلهم بالمادة الشعرية، لكن تجدر الإشارة . كذلك . إلى أنه توجد الصنعة المتكلفة التي يظهر فيها التعمُّل والتصنُّعُ.

ونجد "العسكري" في كتابه الصناعتين، يؤكد على استحباب الصنعة الجيدة، في قوله:« ولا يكون الكلام بليغا، حتى يُعرَّى من العيب، ويتضمنُ الجزالة والسهولةَ، وجودة الصنعةِ».

ومن الموضوعات المهمة التي بحثها "ابن قتيبة" وعرض لها: الشعر المطبوع والشعر المتكلف، فهو يقول:« ومن الشعراء المتكلِّفُ والمطبوع، فالمتكلِّفُ هو الذي قوَّم شعرهُ بالثِّقافِ(يريد به تنقيح الشعر ومراجعته)، ونقَّحه بطول التفتيش وأعاد فيه بُعد النظر كزهَير والحُطيئة وكان الأصمعيُّ يقول: زهير والحطيئة وأشباههما (من الشعراء) عبيد الشعر لأنهم نقَّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خيرُ الشِّعر الحوليُّ المنقَّحُ المحكَّكُ. وكان زهير يسمي كبرى قصائده الحوليات».

ويؤكد "ابن قتيبة" أن المتكلف من الشعر ولو كان مُحكما يُعرف عن المطبوع، حيث قال:« والمتكلف من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفاءٌ على ذوي العلم لتبيُّنِهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكُّرِ وشدَّةِ العناءِ ، ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى عنه». وقد ذكر جملة من الشواهد الشعرية التي تدل على التكلف والتمحّل، وتعليل ذلك. وعطف بعد ذلك بذكر قرينة أسلوبية تدل على وقوع التكلف في الشعر، فقال:« وتتبين التكلُّف في الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير

جاره ومضموما إلى غير لِفْقِهِ، ولذلك فقال عمرُ بن لَجإ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال: وبِمَ ذلك؟ فقال: لأني أقول البيت وأخاه ولأنك تقول البيت وابن عمِّهِ».

ويقول "ابن قتيبة" عن الشاعر المطبوع وعن شعره ما يلي:« والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزَهُ وفي فاتحته قافيته وتبيَّنتَ على شعره رونقَ الطَّبعِ ووشيَ الغريزة وإذا امتُحِنَ لم يتلعثم ولم يتزخَّر(يتكهَّن)».

ووضح "ابن قتيبة" نقطة هامة في هذه المسألة، وهي أن الشعراء مختلفون في الطبع، فمنهم من هو مطبوع في غرض معين دون غرض آخر يقول:« والشعراء أيضا في الطبع مختلفون منهم من يَسهُبُ عليه المديحُ ويعسُرُ عليه الهجاءُ، ومنهم من يتيسَّرُ له المراثي ويتعذَّرُ عليه الغزل. وقيل للعجَّاج: إنَّك لا تُحسن الهجاء، فقال: إن لنا أحلاما تمنعنا من أن نَظْلِمَ وأحسابا تمنعنا من أن نُظْلَمَ، وهل رأيت بانيا لا يُحسِنُ الهدمَ».

يعلق "ابن قتيبة" على قول العجّاج مخطئا إياه، ذاكرا نماذج من فحول الشعراء لا تحسن القول في بعض الأغراض يقول:« وليس هذا كما ذكر العجاج، ولا المثل الذي ضربه للهجاء والمديح بشكل؛ لأن المديح بناء والهجاء بناء، وليس كل بان بضارب بانيا بغيره، ومحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيرا، فهذا ذو الرّمّة، أحسن الناس تشبيها، وأجودهم تشبيبا، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة وماء وقراد وحية، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع، وذاك أخره عن الفحول، فقالوا: في شعره أبعار غزلان ونقط عروس ! وكان الفرزدق زير نساء وصاحب غزل، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب».

ويُعَدُّ "ابن طباطبا"، من أوائل من نظروا في الشعر، وقالوا بتثقيفه، ودعوا الشاعر إلى التوقف والتأمل، وتنسيق الأبيات، ومراعاة حسن تجاورها، والملاءمة بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ويخلو الحشو. وفي هذا يقول الخليفة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه:« خيرُ صناعات العرب أبياتٌ يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستميل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم».

ويقول "الآمدي":« إن شيوخ أهل العلم، زعموا أن صناعة الشعر، وغيرها من سائر الصناعات، لا تجود وتستحكم إلا بأربعة أشياء هي: جودة الآلة، وإصابة الغرض المقصود، وصحة التأليف، والانتهاء إلى تمام الصنعة، من غير نقص فيها ولا زيادة. وإن اتفق للصانع بعد هذه الدعائم الأربع، أن يُحدِثَ في صنعته معنىً لطيفاً مستغرباً، في الشعر من حيث لا يخرج على الغرض، فذلك زائد في حسن صنعته وجودتها. وإلا فالصنعة قائمة بنفسها، مستغنية عما سواها».